ترجمات | قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة | 25 يناير 2017

أوروبـا والإســلام

برنار لويس
ترجمة: راضية عبيد

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

أوروبا والإسلام[1]

برنار لويس

راضية عبيد

[1] هذا البحث تعريب للمقال التالي في لغته الأصليَّة (بالفرنسيَّة):

Bernard Lewis, L'Europe et L'islam, in Le Débat, n 150, 3/2008, p-p16-29.

يحدث أحياناً لمحتوى التاريخ الذي يتَّخذ منه المؤرّخون تجارة أن يطاله النسيان، بما أنَّه يخصُّ الماضي وليس المستقبل. أذكر أنَّه أثناء مؤتمر دوليّ للمؤرّخين عُقد في روما، تقدَّم بعضهم لمناقشة مسألةِ ما إذا كان على المؤرّخين المجازفة بالتنبُّؤ بالمستقبل، وكان الاتّحاد السوفياتيّ وقتها مايزال قائماً، قلّبنا المسألة في كلّ الاتّجاهات حتَّى انتهى واحد من زملائنا السوفيات إلى القول: «الأعسر بالنسبة إلينا هو التنبُّؤ بالماضي».

وبغضّ النظر عنّي، فإنَّه بالإمكان ادّعاء صياغة تنبّؤٍ ما، سواء أكان عن مستقبل أوروبا أم مستقبل الإسلام، لكن بوسعنا أن نتوقَّع من المؤرّخ التعرُّف على النزعات والتطوُّرات، وإبراز النزعات المعتمدة في الماضي، والكشف عن تلك التي ما تزال ملحوظة في الحاضر؛ وانطلاقاً من ذلك تمييز الإمكانات والخيارات التي تتهيَّأ لنا في المستقبل.

عند تناولنا للعالم الإسلاميّ، ثمَّة داعٍ مخصوص لمنحه مكانته الكاملة في التاريخ؛ ذلك أنَّ المجتمع الإسلاميّ يغذّي بصفة استثنائيَّة وعياً حادّاً بالتاريخ. وعلى عكس ما يحدث في أمريكا الشماليَّة وشيئاً فشيئاً في أوروبا، فإنَّ البلدان الإسلاميَّة، وخاصَّة في الشرق الأدنى، تمتلك ثقافة تاريخيَّة تعود إلى ظهور الإسلام في القرن السابع للميلاد. هذه الثقافة نشيطة ومنتشرة ومصانة، حتَّى وإن كانت لا تحظى دوماً بالتثبُّت، فإنَّها تدخل في التفاصيل. وخلال الحرب التي تَواجه فيها العراقُ وإيران، تغذَّت الدعاية في الجانبين واستمدَّت قوَّتها من الإشارات إلى التاريخ. وقد تكشَّف أنَّ معرفة التاريخ أساسيَّة لمن يروم فهم الخطاب العامّ للقادة المسلمين اليوم، سواء أكانوا في الحكم أم في المعارضة، في الداخل أم في المنفى.

إنَّ الفترات المعلومة، بمعنى تقسيم التاريخ إلى فترات، موضوع مفضَّل لدى المؤرّخين، وهي في جوهرها اصطلاح يتبنَّاه المؤرّخ لأغراض البيداغوجيا والتأليف، ولا يمنع هذا أن تُلاحَظ خلال الزمن الطويل لتاريخ الإنسانيَّة نقاط انعطاف وتغيّرات حقيقيَّة وهامَّة، أي نهاية عهد وبداية آخر. أنا كلّ يوم أكثر اقتناعاً بأنَّ الحالة هي ذاتها راهناً، وبأنَّنا نشهد في هذا الوقت تغيُّراً في التاريخ يعادل في الأهميَّة سقوط روما، أو ظهور الإسلام، أو اكتشاف الأمريكتيْن.

من المتَّفق عليه أنَّ التاريخ الموصوف بـ«الحديث» («المعاصر» بالنسبة إلى الفرنسيّين) للشرق الأدنى ينفتح في أواخر القرن الثامن عشر، عندما استطاعت حملة عسكريَّة صغيرة بقيادة الجنرال الشابّ بونبارت أن تبرهن قدرتها على احتلال مصر بأسرها وعلى حكمها دون إدانة. الصدمة رهيبة: فغزو بلد في قلب الإسلام واحتلاله يتحقّقان دون أيَّة مقاومة، وقد أعقبتها صدمة ثانية حدثت بعد بضع سنين عندما طُرد الفرنسيُّون، ليس من المصريّين أنفسهم ولا حتَّى من قبل سادتهم الأتراك العثمانيّين، بل من أسطول صغير للبحريَّة الملكيَّة البريطانيَّة بقيادة الأميرال الشابّ هوراشيو نيلسون الذي أجبر المحتلَّ على ركوب البحر والإبحار في اتّجاه فرنسا.

لهذين الحدثين أهميَّة رمزيَّة عميقة، فمنذ بداية القرن التاسع عشر، لم تعد البلدان المتموقعة تاريخيَّاً في قلب الإسلام تحت رقابة قادة مسلمين، وقد مورس تأثيرٌ مباشر أو غير مباشر، وفي الغالب مراقبةٌ من بلدان خارجيَّة أوروبيَّة أي مسيحيَّة، وقتها فقط بدأ مصطلح أوروبا يُستعمل في الشرق الأدنى الإسلاميّ، وقد انحصر التغيُّر في المصطلح دون المساس بالمفهوم.

كانت القوَّة التي تحكم البلدان الإسلاميَّة، منذ ذلك الوقت فصاعداً، قوَّة خارجيَّة، فما كان يصنع حياة هذه البلدان إنَّما هي قرارات وأعمال وافدة من الخارج، وما كان يمنحها هامش تصرُّف إنَّما هو التنافس بين البلدان الأجنبيَّة، ويتمثَّل الدور الذي يمكن لهذه البلدان الإسلاميَّة أن تلعبه والمسموح لها به، في محاولة الاستفادة من ذلك التنافس بين تلك القوى باستخدامه ضدَّ بعضها بعضاً. وللمؤرّخ أن يلاحظ أنَّ اللعبة لم تتغيَّر من القرن التاسع عشر إلى بداية القرن الحادي والعشرين، فقادة الشرق الأدنى يلعبون هذا الدور بنجاحات متنوّعة، أثناء الحرب العالميَّة الأولى، فالثانية، فالحرب الباردة في النهاية.

كانت القوى المتنافسة من أجل الهيمنة الإمبرياليَّة لفترة طويلة هي: بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا وروسيا وإيطاليا. هذا التنافس أثقل كاهله بمحتوى إيديولوجيّ خلال النصف الثاني من القرن العشرين؛ الحلفاء ضدّ المحور بين 1939 ـ 1945، والشرق ضدّ الغرب خلال الحرب الباردة. وعلى قاعدة المبدأ الذي يزعم أنَّ «أعداء عدّوِّي هم أصدقائي»، ظهر للشعوب تحت الهيمنة الأجنبيَّة أو الحكم الأجنبيّ من سادتهم أنَّه من الطبيعيّ التحوُّل نحو المتنافسين الإمبرياليّين أوَّلاً والإيديولوجيّين لاحقاً.

وللتدليل على ذلك نسوق هذه التقسيمات التي ظهرت في البلدان التي تحت الهيمنة الإمبرياليَّة الفرنسيَّة والبريطانيَّة، وهي بداية في صالح النازيّين ثمَّ في صالح السوفيات، حتَّى أحياناً دون أن يتغيَّر القادة. ومع ذلك تجدر ملاحظة أنَّه لا وجود، على ما يبدو، لمكافئ مُوالٍ للغرب في البلدان الإسلاميَّة الخاضعة للهيمنة السوفياتيَّة. فالنظام السوفياتيّ، حتَّى قبيل انهياره، أظهر قدرات على التوجيه والردع لم تتهيَّأ بطريقة مكافئة للإمبراطوريَّات الغربيَّة ومجتمعاتها الأكثر تفتُّحاً.

انتهت اللعبة اليوم، لقد وقَّع ريغن وغورباتشوف نقطة النهاية للعهد الذي دشَّنه بونبارت ونيلسون. لم تعد القوات الخارجيَّة تهيمن على الشرق الأدنى. والشعوب هناك لديها بعض الصعوبة في التأقلم مع الوضعيَّة الجديدة، وفي تحمُّل المسؤوليَّة كاملة لأعمالها ونتائجها. ولا أحد عبَّر عن هذا التغيُّر بمنتهى الوضوح والبلاغة أفضل من أسامة بن لادن.

صدمة النزعات الكونيَّة

مع نهاية عصر الهيمنة الخارجيَّة، يمكننا ملاحظة عودة ظهور بعض الاتّجاهات والتيَّارات العميقة للشرق الأدنى التاريخيّ القديم التي قمعتها الهيمنة الغربيَّة خلال القرون الماضية، أو على الأقلّ حجبتها. لقد عادت إلى واجهة المشهد. أحد هذه الاتّجاهات هو الصراع الداخليّ بين مختلف قوى الشرق الأدنى، وهو صراع عرقيّ طائفيّ إقليميّ. هذا النوع من الصراع حتَّى وإن لم يتوقَّف أبداً فقد تضاءلت شدَّته في عهد الإمبرياليَّات. وفي أيَّامنا هذه عاد بكثافة متجدّدة كما تشهد على ذلك المواجهة غير المسبوقة في القرون الأخيرة بين الإسلام السنّيّ والإسلام الشيعيّ.

ثمَّة تغيُّر آخر يدخل مباشرة في موضوعنا، ويتمثَّل في عودة ما يُنظر إليه بين المسلمين على أنَّه صراع كونيّ بين العقيدتين الرئيسيّتين: الإسلام والمسيحيَّة. هذه النظرة إلى الذات عند المسلمين كما عند المسيحيّين أدَّت إلى هذه الحروب الطويلة التي دامت أربعة عشر قرناً، وهي تشهد الآن مرحلة جديدة. في الجانب المسيحيّ الذي يدخل قرنه الحادي والعشرين لم يعد الانتشاء بالنصر مناسباً، باستثناء بعض الجماعات من الأقلّيَّات، وفي عقر دار الإسلام الذي يدخل قرنه الخامس عشر تظلُّ نشوة النصر قوَّة مهمَّة تجد تعبيراً جديداً لها في حركات المقاومة.

نلاحظ أنَّ كلتا الديانتين لم تكونا في البدايات ولفترة طويلة تريدان الاعتراف بوجود مواجهة، خوفاً من الاعتراف بأنَّ الآخر ديانة كونيَّة. وتدَّعي كلُّ واحدة أنَّ الصراع الذي يضعها وجهاً لوجه هو بين الدين الحقّ، بمعنى معتقداتها الخاصَّة، وبين الكفَّار. وقد فضَّلت كلُّ واحدة لفترة طويلة أن تسمّي الأخرى بألفاظ لا تمتُّ إلى المعجم الدينيّ بصلة، فالمسلمون يسمُّون المسيحيّين بالروميّين والفرنجة والسلافيّين وما إلى ذلك، فيما يتكلّم المسيحيُّون عن المسلمين باعتبارهم موريّين وتتاراً وتركماناً، ولا تخلو التسميات من سوء نيَّة، وفي الغرب يُعيَّن المسلمون بالمحمّديّين، وهو مصطلح لا يطلقه المسلمون على أنفسهم كما هو شأن مصطلح المسيحيّين المرتبط بالمسيح. ويستعمل المسلمون مصطلح النصرانيّ لتعيين المسيحيّ.

لقد تزامن إعلان الحرب تقريباً مع بداية الإسلام. تذكر الرواية الموغلة في القدم أنَّ الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أرسل في السنة السادسة للهجرة الموافقة لسنة 628 بالتاريخ الميلاديّ ستّة مبعوثين يحملون خطابات إلى أباطرة بيزنطة وفارس وإلى النجاشيّ في الحبشة وإلى حكَّام وأمراء آخرين لإخبارهم بظهور الإسلام ودعوتهم لاعتناق العقيدة أو تحمُّل العواقب في حال اعتراض سبيل الدعوة. أصالة هذه الخطابات موضع شكّ، لكنَّ مضمونها لا يعكس نظرة الهيمنة لدى المسلمين منذ القدم.

وفي وقت لاحق من القرن الأوَّل للهجرة، وُجدت نقوش تشهد على عنف المواجهة بكلّ ما في الكلمة من معنى. لقد عرف هجوم الإسلام ضدَّ المسيحيَّة وما أعقبه من صراع بدافع وجوه الشبه بين الديانتين أكثر منه بسبب الاختلافات بينهما ثلاث مراحل؛ تعود الأولى إلى البدايات المبكّرة للإسلام عندما انتشر خارج مهده شبه الجزيرة العربيَّة نحو الشرق الأدنى وما يليه. حينها غزت الجيوش الإسلاميَّة سورية وفلسطين ومصر وشمال إفريقيا وعدداً من البلدان التي كانت تدين بالمسيحيَّة وانضوت تحت راية الإسلام والعروبة. ومن ثمَّ وضعت الجيوش الإسلاميَّة قدماً في أوروبا بغزو إسبانيا والبرتغال وصقلّية، وأضافت إليها عدَّة أراضٍ في جنوب إيطاليا. لقد تمَّ دمج هذه المناطق بالعالم الإسلاميّ، وكذلك، ولبعض الوقت، جزء صغير من فرنسا ممَّا وراء جبال البيرينه التي اخترقتها أيضاً الجيوش الإسلاميَّة.

وتبع ذلك صراع عنيف وطويل سعى من ورائه المسيحيُّون إلى استرجاع جزء من الممتلكات الإسلاميَّة، وقد أفلحوا في ذلك في أوروبا لكنَّهم أخفقوا في شمال إفريقيا والشرق الأوسط اللذين خسرتهما المسيحيَّة ابتداء من الأرض المقدَّسة، حيث فشلت هذه السلسلة من الحملات المعروفة بالصليبيَّة.

ومع ذلك لم تكن هذه نهاية القصَّة، إذ في تلك الأثناء وبعد أن فشل العالم الإسلاميّ مرَّة أولى في محاولته غزو أوروبا، فإنَّه شنَّ هجوماً ثانياً، ليس هذه المرَّة بقيادة العرب والموريّين، ولكن بقيادة الترك والتتار. في أواسط القرن الثالث عشر دخل غزاة روسيا المنغوليُّون في الإسلام، والترك من جانبهم بعد غزوهم آسيا الصغرى حاصروا المدينة المسيحيَّة القديمة في أوروبا القسطنطينيَّة التي سقطت سنة 1453. ثمّ جاء دور البلقان، وحكم الترك فترةً نصف المجر. وحاول الترك مرَّتين الاستيلاء على فيانا سنة 1683. كما شنَّ القراصنة البربر بسواحل شمال إفريقيا المعروفون لدى مؤرّخي الولايات المتّحدة غارات على أوروبا وأوغلوا إلى إيسلندا، الحدّ الأقصى لتوسُّعهم سنة 1627، ونحو أماكن أخرى متنوّعة من أوروبا الغربيَّة خاصَّة بالتيمور الأولى في إيرلنده سنة 1631. ويتحدَّث أرشيف ذلك العهد عن 700 أسير اقتيدوا إلى الجزائر.

ومرَّة أخرى ردَّت أوروبا بهجوم معاكس ولكن بنجاح وسرعة أكثر. أعاد المسيحيُّون غزو روسيا وشبه جزيرة البلقان، وذلك بالتقدُّم في الأراضي الإسلاميَّة وطرد الفاتحين إلى ديارهم. اتَّخذت هذه المرحلة من الهجوم المعاكس تسمية جديدة: الإمبرياليَّة، وهي لا تنطبق إلا على الغرب عندما يهاجم آسيا وإفريقيا وليس العكس. ويتحمَّل الغرب بحكم إرثه اليهوديّ المسيحيّ تقليداً طويلاً من الذنب وجلد الذات للتكفير عنه.

فتح هذا الهجوم الأوروبيُّ المضادُّ مرحلة جديدة شهدت تأسيس أوروبا لحكومة في قلب الشرق الأوسط. لقد بدأ العهد الأوروبيُّ عقب الحرب العالميَّة الأولى لينتهي عقب الحرب العالميَّة الثانية. وقد شهدنا ـ نحن المعاصرين ـ نهاية كلّ هيمنة أوروبيَّة وخاصَّة روسيَّة على أرض الإسلام.

يبسط أسامة بن لادن في بعض التصريحات المثيرة للاهتمام نظرته للحرب في أفغانستان بين 1978 و1988 ذلك الصراع الذي شهد هزيمة الجيش الأحمر فانهيار الاتّحاد السوفياتيّ الذي يعدُّه بن لادن انتصاراً للجهاد الإسلاميّ ضدَّ الكفر، وهو يقدّر أنَّ الترك اللّائكيّين الموالين للغرب هم من أوصلوا التاريخ الإسلاميَّ إلى الدرك الأسفل، ويرى أنّ الإطاحة بالأمريكيّين أمر يسير بعد مواجهة المسلمين للاتّحاد السوفياتيّ، القوَّة الأعتى، وهزمه.

يبدو الأمر متأكّداً في العشريَّة 1990، عندما شهد العالم الهجوم تلو الآخر ضدَّ القواعد والمنشآت الأمريكيَّة، دون أن يلوح أيُّ ردٍّ ما عدا عبارات الشجب وإطلاق صواريخ مكلفة على المناطق النائية غير المأهولة. وبالفعل، تأكّدت دروس فيتنام وبيروت (1983) في مقاديشو (1993)؛ في هاتين المدينتين تسبَّب هجوم دمويّ على الأمريكيّين الأعضاء في بعثة الأمم المتَّحدة في الانسحاب الكلّيّ والمباشر تقريباً للجيوش. ذاك هو مجرى الأحداث التي قادت إلى 11 سبتمبر، ويهدف الهجوم بوضوح إلى طيّ فصل أوَّل وفتح آخر سيشهد انتقال الحرب إلى قلب معسكر العدو.

الموجة الثالثة

في نظر أقليَّة متعصّبة وحازمة من المسلمين، تُعدُّ الموجة الثالثة من الهجوم قد بدأت دون أدنى شكّ، وهي تكتسي أشكالاً مختلفة، وخاصَّة الإرهاب والهجرة.

الإرهاب هو عنصر من معضلة أكبر، بمعنى العنف عموماً واستعماله لصالح الدين. وليس للإسلام، كما يراد إفهامنا، تلك التطلّعات السلميَّة التي للمسيحيَّة في البدايات. فعلم الإلهيَّات والشريعة في الإسلام كما التطبيق، إن لم تكن النظريّة المسيحيَّة، يعرّف جميعها الحرب على أنَّها حقيقة من حقائق الحياة، تنادي بل تطالب باللجوء إلى الحرب في بعض الوضعيَّات؛ وتريد وجهة النظر التقليديَّة أن ينقسم العالم إلى شطرين: دار الإسلام حيث الشرع والحكم وفقاً لتعاليمه، وبقيَّة العالم المجمَّعة تحت اسم دار الحرب.

والحرب لا تعني الإرهاب، ذلك أنَّ الإسلام ينظّم في تعاليمه ممارسة الحرب بفرضه احترام قوانينها ومعاملةً إنسانيَّة للنساء والأطفال وغير المقاتلين، كما أنَّه لا يقرُّ الأعمال الإرهابيَّة ويحرّم الانتحار.

لقد احتُرمت هذه القواعد والمعتقدات في زمن الإسلام الأوَّل، ثمّ تآكلت في أيَّامنا هذه، وأعيدَ تفسيرها، واستُبعدت بتبريرات مستمدَّة من مختلف مدارس الإسلام الراديكاليّ. جميع المنفّذين لأعمال الإرهاب هم في حاجة إلى إعلام أفضل عن معتقداتهم وتقاليد دينهم، لكنَّ الأمور تجري على عكس ذلك، لأنَّ المنتحرين بالتفجير وغيرهم من الإرهابيّين أصبحوا نماذج يقتدي بها عدد متزايد من الشبَّان المدفوعين بالغضب والإحباط.

أمَّا الهجرة فتخصُّ مباشرة وبدرجة أولى أوروبا. لم يكن من المقبول في الأوَّل أن يستقرَّ مسلم في بلد غير مسلم، وقد تناولت نصوص الشريعة المسألة بطرق مختلفة: هل يجوز لمسلم أن يعيش أو حتَّى أن يذهب إلى بلد غير مسلم؟ وإذا حصل فماذا عليه أن يفعل؟ لا يجيز الفقهاء عموماً الإقامة في بلاد الكفر وعلى أسير الحرب أن يحافظ على إيمانه ويعمل على العودة إلى بلده في أقرب وقت ممكن، والغرض الوحيد المشروع لزيارة بلد غير مسلم هو أخذ غنائم الحرب، ثمَّ توسَّع لاحقاً ليشمل المهامَّ الديبلوماسيَّة والتجاريَّة؛ وحتَّى من تقع بلدانهم في أيدي الكفَّار، كما حصل لصقليّة المسلمة التي غزاها النورمانديُّون في القرن الحادي عشر، وإسبانيا في أواخر القرن الخامس عشر، فهل عليهم أن يبقوا فيها؟ والجواب بالنفي دائماً، خوفاً من وقوعهم في الردَّة. عليهم المغادرة على أمل استعادة وطنهم وإعادة إشاعة الإيمان الحقيقيّ، وقد أفتى بعض الفقهاء بجواز البقاء إذا تهيَّأت لهم فرصة ممارسة شعائرهم.

والحال أنَّ مغادرة الديار طوعاً والاستقرار في دار الحرب أصبحا أكثر انتشاراً في الوقت الراهن بداعي العوز الاقتصاديّ المتزايد في العديد من البلدان الإسلاميَّة وجَشَع قادتها وطغيانهم.

يستفيد المهاجرون المسلمون من حريَّة التعبير ومستوى التعليم المفتقَدَيْن في بلدانهم، والإرهابيُّون أنفسهم يتمتَّعون بحريَّة أكبر فيما يتعلّق بمعدَّاتهم وعمليَّاتهم في أوروبا، وبدرجة أقلّ في الولايات المتَّحدة. ومن العوامل الفاعلة في الوضع الحاليّ ظهور الراديكاليَّة الجديدة في العالم الإسلاميّ، وهي من انتماءات شتَّى، ومتمثّلة في الوهَّابيَّة، وكذلك في الشيعة الإيرانيَّة منذ الثورة الإيرانيَّة. ولا يخلو الأمر من تناقض، ذلك أنَّ الإسلام الراديكاليّ أشدُّ خطراً على أوروبا وأمريكا منه على الشرق الأدنى وعلى شمال إفريقيا، بسبب ما بذله حكَّام المنطقتين الأخيرتين من حنكة في التصدّي للتطرُّف؛ ولم يمنع ذلك من اعتبار الراديكاليَّة الإسلاميَّة أشدَّ خطراً على الإسلام منه على الغرب.

الراديكاليَّة السنّيَّة هي في جوهرها من أصل وهَّابيّ بمنطقة نَجْد في القرن الثامن عشر، وقد جعل غزو آل سعود لنجد في سنة 1920 وإقامة المملكة العربيَّة السعوديَّة فيها، جعل من منطقة هامشيَّة قوَّةً عظمى على الأراضي الإسلاميَّة وما يليها، وقد استفادت الوهَّابيَّة كثيراً من هيبة الأسرة المالكة السعوديَّة ونفوذها، وهي المسيطرة على البقاع المقدَّسة للإسلام: الحجّ السنويّ، واستفادت أيضاً من الثروة الضخمة المستمدَّة من النفط.

الثورة الإيرانيَّة هي من طراز آخر، إذ كانت حدثاً ذا طابع يمكن مقارنته بما يُفهم من الثورة الفرنسيَّة أو الروسيَّة، وكان لها تأثير على كامل منطقة العالم الإسلاميّ، الشيعيّ والسنّيّ بالشرق الأدنى وما يليه.

المسألة الأخرى موضوع النقاش اليوم هي مسألة الاستيعاب، فإلى أيّ مدى يمكن للمهاجرين المسلمين الذين استقرُّوا في أوروبا أو أمريكا الشماليَّة أن يصبحوا أعضاء كاملين في تلك البلدان كما فعل مهاجرون آخرون قدموا أفواجاً؟

ثمَّة نقاط أخرى تتطلّب النظر والتحقيق، ومنها ما يتعلّق بفهم أهداف الاستيعاب ومضامينه. ثمَّة تناقض في المفاهيم، إنَّه انتماء سياسيّ جديد بالنسبة إلى المهاجر إلى أمريكا؛ وهو الولاء والتنازل عن الهويَّة الإثنيَّة بالنسبة إلى من يصبح فرنسيًّاً أو ألمانيًّاً، سواء بالنظر إلى مشاعر كلّ فرد أو باعتبار ما يبدو مقبولاً من الجميع. وقد استخدمت بريطانيا العظمى المنحيين، فالمهاجر المتجنّس يصبح بريطانيًّاً دون أن يصبح بالضرورة إنجليزيًّاً.

لنعد إلى ما أشرنا إليه حول الفرق في فهم الدين؛ فبالنسبة إلى المسلمين يضمُّ الدين مجموعة أشياء مختلفة منضوية تحت مظلّة قوانين الأحوال الشخصيَّة: الزواج والطلاق والميراث، وما إلى ذلك، أمور اعتبرها الغرب منذ القديم موادَّ علمانيَّة؛ أمَّا مفهوم التمييز بين الكنيسة والدولة، بين الروحيّ والدنيويّ، بين الكنسيّ واللائكيّ فليس له مكان ولا ما يعادله في تاريخ الإسلام.

أهو حوار بنَّاء؟

كيف تتعامل أوروبا مع هذا الوضع؟ في الغالب تجيب أوروبا والولايات المتَّحدة بما اصطُلح على تسميته بالتعدُّديَّة الثقافيَّة وبالإصلاح السياسيّ.

للمسلمين وعي قويّ بهوّيتهم، إنَّهم يعرفون من هم وماذا يريدون، وتلك خصلة يبدو أنَّ الكثيرين في الغرب قد افتقدوها، وهي مصدر قوَّة من ناحية وضعف من ناحية أخرى.

للغرب إجابة شائعة يُصطلح عليها بالحوار البنَّاء، ولهذه المقاربة رسائلها النبيلة، فقد سمح صلاح الدين للمسيحيّين عندما فتح القدس والأراضي المقدَّسة بالبقاء في المدن الساحليَّة التي قدموا إليها للحروب الصليبيَّة، ويبدو أنَّه شعر بالحاجة إلى تبرير اقتراحه لدى الخليفة في بغداد، فكتب أنَّ هؤلاء التجَّار تُرجى منهم فائدة، بما أنَّه لا يوجد واحد منهم إلا ويجلب أسلحة الحرب ويبيعها لنا، وذلك لصالحنا وعلى حسابهم. استمرَّ الحال طيلة الحروب الصليبيَّة وما بعدها حين اقتحمت الجيوش العثمانيَّة قلب أوروبا، لقد صادفوا تجَّاراً أوروبّيين يرغبون في بيع الأسلحة ومصرفيّين يتعجَّلون تمويل مشترياتهم، وهذا التقليد سلكه بالأمس متعهّدو تموين صدَّام بالأسلحة الحديثة، ويواصله القادة في إيران اليوم.

وتتَّخذ محاولات الحوار في أيَّامنا هذه أشكالاً أخرى، فقد كشف لنا أحد الأحبار المشهد الخارق للاعتذارات التي قدَّمها للمسلمين عن الحروب الصليبيَّة، ويُنتظر منَّا أن نجعل من الحروب الصليبيَّة عدواناً غير مبرَّر ضدَّ بلاد إسلام مسالمة. إنَّنا بعيدون عن الحساب، وأوَّل نداء بابويّ للاشتراك في حملة صليبيَّة كان سنة 846 في اليوم التالي لحملة بحريَّة انطلقت من صقلّيَّة الواقعة تحت حكم العرب، وقد سارت نحو عالية نهر التيبر، ويتحدَّث المعاصرون عن 73 مركباً و10000 رجل احتلّوا لفترة وجيزة أوستيا ونهبوا كاتدرائيَّة القدّيس بطرس في روما والقدّيس بول على الضفّة اليمنى لنهر التيبر. وردَّاً على ذلك ناشد المجمَّع الكنسيّ في فرنسا الحكَّام المسيحيّين محاربة «أعداء المسيح»، ووعد البابا ليو الرابع بمكافأة سماويَّة لكلّ الذين سيهلكون في القتال ضدَّ المسلمين؛ وفي هذا انعكاس لما يعد به المسلمون محاربيهم. ومن تمام الفائدة عند المواجهة التعلّم من العدوّ واستعارة وسائله الأكثر فاعليَّة. وتُعدُّ الحروب الصليبيَّة محاكاة للجهاد، وإن كانت متأخّرة ومحدودة ودون نجاح يُذكر. فشلت المحاولة وبقيت دون إجابة.

في 18 أكتوبر 2002، قدَّم رئيس الوزراء الفرنسيّ جون بيار رافاران في خطابه عن العراق بالجمعيَّة الوطنيَّة توضيحاً صادماً للمقاربة المعاصرة حول حرب الأربعة عشر قرناً هذه، وذكر أنَّ الشخصيَّة المفضَّلة لدى صدَّام حسين هو مواطنه صلاح الدين، وهما من تكريت، وأصرَّ على توضيح أنَّه مَن «تحدَّى الصليبيّين وحرَّر القدس»، تعجَّب أحد النوَّاب من أن ينطق رافاران بلفظ «تحرير»، لكنَّ الخطيب تجاهله، ولم يعلّق أحد على الأمر في الأيَّام الموالية.

وجد الإسلاميُّون الراديكاليُّون حلفاء في أوروبا ممَّن يمارسون جاذبيَّة اليسار المتطرّف على المعارضين لأمريكا في أوروبا، باعتبارهم عوَّضوا السوفيات القدامى، لكنَّ جاذبيَّتهم هي من اليمين المتطرّف على العناصر المعادية للساميَّة من الأوروبيّين، الذين يرون أنَّهم عوَّضوا النازيّين؛ لقد ربح الإسلاميُّون غالباً على أرض المعركة إزاء العناصر نفسها، لأنَّه يحدث أن تنتصر الكراهيَّة في أوروبا على الولاءات.

ثمَّة اختلاف آخر في ألمانيا حيث المسلمون هم بالأساس أتراك، وقد عُوملوا كاليهود، بمعنى أنَّهم ضحايا العنصريَّة والاضطهاد، وهم اليوم يأملون في قبول مليونين منهم، وفي أن يشفع لهم شعور الألمان بالذنب.

مسألة التسامح تُطرح على نطاق أوسع عندما يجد المسلمون أنفسهم مخيَّرين بين التعميد أو المنفى أو الموت بمجرَّد استعادة إسبانيا والبرتغال، وظلّت شعوب مسلمة في البلقان ممَّا أدَّى إلى الاضطرابات المعروفة في كوسوفو والبوسنة حتّى يومنا هذا.

وتنفتح مسألة التسامح الدينيّ على العديد من الرهانات؛ فقد أظهر المسلمون في الماضي تسامحاً أوفر من المسيحيّين تجاه الديانات الأخرى أو التيَّارات الداخليَّة في الإسلام أثناء الحروب الطويلة بينهما في

أوروبا الشرقيَّة والغربيَّة. كان في مسيحيَّة القرون الوسطى مجازر وطرد وموت في المحرقة، وكانت حركات اللاجئين من الغرب إلى الشرق عكس ما يحدث اليوم.

هذا التمييز الذي كان مقبولاً في السابق أصبح متناقضاً أكثر فأكثر مع المفاهيم الديمقراطيَّة للتعايش المتحضّر، وقد اعتبر جورج واشنطن في عام 1790 أنَّ التسامح ليس مكرمة، وإنَّما هو حقٌّ طبيعيّ.

في أواخر القرن السابع عشر، كان الوضع في أوروبا الغربيَّة أفضل ممَّا هو في المقاطعات الإسلاميَّة، إذ أنَّ الشرق قد انطوى على نفسه لشعوره أنَّه مهدَّد.

أعطى المسلمون وعدد من مواطنيهم غير المسلمين معنى آخر للتسامح، فالمهاجرون منهم إلى أوروبا يتطلّعون إلى الاستفادة من درجة التسامح التي لقيها قديماً غيرُ المسلمين في الإمبراطوريَّة الإسلاميَّة. كان هؤلاء يديرون أعمالهم بأنفسهم، ويطبّقون قوانينهم في مجالات الزواج والطلاق والميراث، ولهم مدارسهم، وكان اليهود يتمتّعون بالنظام نفسه، ولم يكن للمسلمين هذه الدرجة من الاستقلاليَّة في حياتهم القانونيَّة والاجتماعيَّة صلب الدولة اللائكيَّة الحديثة. لقد صادفتهم مشكلة تعدُّد الزوجات واستقدامهم أكثر من زوجة، وأضحى التعارض بين وضعيَّة النساء داخل هذين المجتمعين المحدَّدين دينيَّاً مسألة حسَّاسة، خاصَّة زمن انهزام المسلمين. لقد أشعرت الهزيمة العسكريَّة المسلم بأنَّه فقد السيادة في العالم، فلم يشأْ أن يفقدها في داره، وهو ما يفسّر احترازه من تحرير المرأة المستلهم من الأفكار الغربيَّة.

لكن حتَّى وقت قريب، سلطة إسلاميَّة وحيدة ادَّعت أنَّ تطبيق قوَّة الشريعة ينبغي أن يجري على غير المسلمين في البلدان غير المسلمة، وأوّل تعبير علنيّ لهذه الرؤية للأمور يعود إلى آية الله الخميني الذي أعلن من إيران الحكم بالإعدام لشتم الرسول ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ، ليس فقط على الكاتب المسلم سلمان رشدي الذي كان يعيش وقتها في لندن، ولكن أيضاً على كلّ من ساعد على إعداد الكتاب وصناعته وتوزيعه، من طابعين وناشرين وموزّعين وأصحاب مكتبات، ويُفترض أنَّ جميعهم غير مسلمين. هذه الفتوى تبعتها محاولات كثيرة لتطبيق الشريعة في بلدان أخرى استقرَّ بها المسلمون. لنتذكَّر ردَّة فعل المسلمين على الصور المسيئة التي ظهرت في الدنمارك، وقد تراوحت ردود الفعل الأوروبيَّة على غضب المسلمين بين الإنكار المتحفّظ والموافقة الصريحة.

هل من فرصة ثالثة؟

هل تكون لأوروبا فرصة ثالثة؟ للمسلمين في الظاهر ميزات أهمُّها الحماس والقناعة، وهما إمَّا مفتقدان أو موجودان بجرعة ضعيفة في أغلب البلدان الغربيَّة؛ إنَّهم محصَّنون بوجاهة قضيَّتهم، وفي هذا المضمار يعيب الغربيُّون بعضهم بعضاً ويتخاذلون.

يبدي المسلمون ولاء وانضباطاً، إلَّا أنَّ العنصر الأكثر فاعليَّة لصالحهم هو التركيبة السكَّانيَّة. فالنموُّ الطبيعيُّ وحركات الهجرة يجرَّان تغيُّرات عميقة في عدد السكَّان؛ قد يصبح المسلمون في مستقبلٍ منظور الأغلبيَّةَ في بعض المدن الأوروبيَّة على الأقلّ، أو في بلدان أوروبيَّة. ويلاحظ الفيلسوف السوريّ صادق العظم أنَّ السؤال القائم هو معرفة ما إذا ستتمُّ أسلمة أوروبا أم هل أنَّ الإسلام سيتأثَّر بأوروبا؟

ومهما يكن من أمر، فإنَّ للغرب مزاياه أيضاً، ليس أقلّها المعرفة والحريَّة، فالجاذبيَّة التي تمارسها المعرفة الحديثة في مجتمع يتمتَّع منذ الماضي البعيد بسجلّ نجاحات في مجال العلم هي حقيقة. ولدى المسلمين اليوم وعي مؤلم، لكنَّه حادٌّ، بتأخُّرهم النسبيّ مقارنة بماضيهم وبمنافسيهم المعاصرين، وكثيرون هم الذين يتمنَّون القدرة على تغيير هذا الاختلال إذا ما تهيَّأت الفرصة.

أمَّا ما هو أقلُّ وضوحاً ولكن بقوَّة مساوية فهو جاذبيَّة الحرّيَّة. في بلاد الإسلام لم يكن قديماً لكلمة حرَّيّة معنى سياسيّ بل شرعيّ، والمفهوم القانونيّ هو أنَّ أيَّ شخص ليس عبداً هو حرّ؛ ولم تكن الحريَّة والعبوديَّة من تلك الاستعارات التي استعملها المسلمون كما استُعملت في الغرب. ويكون التمييز بين الحكومات الحسنة والحكومات السيّئة باعتبار العدالة والظلم، فالحكم الحسن هو حكم عادل، يشاهد فيه تطبيق الشريعة حتّى في قيود السيادة التي يفرضها. التقاليد الإسلاميَّة، نظريَّاً وفي الممارسة على نطاق واسع، إلى حدود هجمة التجديد، ترفض بإصرار الحكومة التعسُّفيّة والاستبداديَّة. وما الصنف المعاصر من الدكتاتوريَّة التي تزدهر في عدد من البلدان الإسلاميَّة إلا بدعة مستوردة من أوروبا؛ فكانت أوَّلاً عمليَّة التحديث التي دعَّمت السلطة المركزيَّة على حساب عناصر المجتمع الذين منعوها، ثمَّ كانت عن طريق المراحل المتعاقبة لتأثير النازيّين والسوفيات ونموذجيْهم.

العيش تحت نظام العدالة بحسب السلّم التقليديّ للقيم هو ما يقرّب أكثر ممَّا يُسمَّى في الغرب «الحريَّة»، ولكن منذ أن انتشرت الدكتاتوريَّة على النمط الأوروبيّ عرفت فكرة الحريَّة كما يفهمها الغرب طريقها إلى الأراضي الإسلاميَّة، وتمَّ فهمها بصورة أفضل وتثمينها على نطاق أوسع والتوق إليها بحماس أكبر. أليس هنا وعلى الأمد الطويل يتجسَّم أملنا الأفضل، وربَّما الوحيد، في أن نعيش هذه المرحلة الأخيرة من حرب الأربعة عشر قرناً، وهي الأخطر من وجوه عدّة؟

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017